الافكار سر الحضارة

والقنابل لا تدمرها
الا اذا رضي الشعب تقييد الفكر

على ارغم من توالي الحوادث الكبار وابانها، وانشغال الفكر بتتبعها وتقصي مغازيها يطيب لكاتب هذه السطور عندما يستطيع، أن يخلو الى نفسه قليلاً في هدأة الليل على الغارب، أو قبيل انبثاق الفجر للتأمل في أشياء قائمة من وراء الحوادث، راسية كالصخرة الصماء تقبل عليها الأمواج وتدمرها ثم تتكسر عليها وتنحسر عنها فتبدو الصخرة راسية راسخة. والحوادث الخطيرة المتعاقبة المتزجرجة في تعاقبها كالزبد في انقياس انها ليست الا كأمواج البحر بالقياس الى الصخرة الراسية تدمرها الحوادث فتغيب عن النظر أحياناً ولكن يهمنا ألا تغيب عن الذهن لأنها الأصل والحوادث انما هي الفروع

في ثنايا الصور الطوال التي اجتازتها الحضارة في تقدمها سار فنان أساسيان من قوتها جنباً الى جنب: فن الحضارة وفن القتال. وقلما نجد في التاريخ أمة جاءت عليها فترة من الطمأنينة والسلام بغير حرب أو قتال تتجاوز ثلاثة قرون. ولعل تفسير هذه الحقيقة مستقر في أن الانسان مسالم ومحارب في وقت واحد. ففيه غريزة الحرب وغريزة الحياة الهادئة والعيش المطمئن متزجتان متلازمتان

وليس القصد من هذا القول أن نعزو الى الانسان حالة من النقص تتكامل بنبذ الحرب. فلا يندر بين الفلاسفة من يظنون ان الحياة التي انتفت منها غريزة الحرب غير جديرة بالعناية ويذهبون الى القول بأن القتال يجب أن يلازم الحياة لئلا يضعف عصب السلالة وعضلها وتصاب قدرتها على النضال بالانحطاط. وهو ما يقع في بضعة أجيال في أسرة سادها الترف. وقد يرى أن الغرض من سوق هذه الاعتبارات الفلسفية والاجتماعية هو تسويغ الايمان بالحرب ووجوبها. مجاراةً لقول من قال: إن الحرب حقيقة واقعة والسلام رغبة. وانه لا بدَّ من الحروب ما زال هناك ارتقاء انساني. لأن النزعة السلمية تعني التسليم قدرة شؤون العالم للذين لا ينزعون الى السلام. ولا بد أن يبقى السلام مثلاً أعلى والحرب حقيقة واقعة. وهو قول الفيلسوف اوشفالد شبنغلر الالماني. ليس هذا غرضنا مهما يكن رأينا فيه وانما القصد الاشارة الى تراثنا البيولوجي المستقر في تركيبنا العضوي. ففي عالم الطبيعة نجد غريزة الحرب وغريزة الحياة وجهين لشيء واحد. والغرائز البيولوجية أشد تأصلاً من صرائح التفكير وتدبيرات السياسة والاجتماع. في

علم الطبيعة نجد التمثال الضيف جنباً الى جنب مع أبلغ مظاهر الحب الأبوي والرأفة والعطف والمغازلة في شتى أنواع الحيوان . وأنهُ لمن بواعث الألم والحيرة لكل محب للطبيعة أن يرقد في ظل شجرة في غابة يحسبها واحة من السلام ثم يسمع صوتاً أو تغريداً فيعلم أن أحد الطيور عاد الى وكنه بعد أن قتل طيراً آخراً أو اصطاد دودة حقيرة . ولكنهُ في الوقت نفسه يتعزى عن ألم هذا بأن غريزة الحياة في الطبيعة أبداً تتغلب على غريزة القتال فلا تصيب الأرض مجاعة تهصر الأغصان وتبيد الزرع حتى يجيء الربيع التالي فاذا الأشجار تخرج أغصاناً جديدة تحمل الأزهار والأثمار واذا الأرض تطلع نبتاً ما أنضره

وها هي ذي أوربا ميدان لأعصار مجتاح من القوى الانسانية المتطاحنة وكل متتبع لسياسات الدول كان مقتنعاً بعد عقد اتفاق ميونيخ في آخر سبتمبر سنة ١٩٣٨ بأن السلام في أوربا أقرب الى الحرب بل أن هناك من الشعوب الاوربية كبريطانيا وفرنسا من كان يحسب ذلك السلام أضرى وأشد أذى من الحرب نفسها وربما زاد في اضطراب الأفكار وبلبلتها أن مريدي الحرب كانوا يتظاهرون بحب السلام وكان المتدرعون يصفون ضحاياهم بانهم مضرمو نار الصراع . كذلك مدَّ الهر هتلر يده بعد ما عاد من تمزيق اوصال بولونيا الى أم أوربا وقال في دعة انهُ لا يرى سبباً لنشوب حرب او لاستمرارها . وعلى هذا قالت اليابان بعد حرب مع الصين دامت ثلاث سنوات — بدأت حملتها البوليسية التأديبية على الصين في ٧ يوليو سنة ١٩٣٧ — وقتل فيها الملايين من الناس ودمرت الاملاك وعطلت التجارات — ان الغرض انشاء نظام جديد في شرق آسيا

ما معنى كل هذا ؟ هل قدمت غريزة الحياة السلمية في الانسان ؟ هل طغت عليها ودمرتها غريزة الحرب ؟ وهل تدمر الحضارة نفسها اي الفنون والدين وفتوحات العلم الحديث وفنون الحياة جميعاً من رياضة ومتعة بالفن والأدب وغيرها . لا بد من التسليم بان ذلك الجانب من حضارتنا المتمثل في المدن الفنية والآثار الفاخرة والقصور والمساجد التي تتجلى فيها روائع النقش معرَّض للدمار . وليس في النصف الغربي من اوربا من الشمال الى الجنوب منطقة لا تجد فيها مقرًّا حافلاً بآيات العبقرية الفنية . وتلك قرى الاكياس الرمل تصطف فيها وحوانيتها لصونها من الانهيار فتقول وما تفي الاكياس في منع القباب الفخمة والمسلات المدببة والتماثيل والنقوش الفاخرة ، والفذة في كثير من الأحيان ، اذا أصابتها قنبلة واحدة في الصميم

ولكننا اذا تذكرنا أن غريزة الحرب هي ناحية اخرى من غريزة الحياة وان الرجل الذاهب الى ميدان القتال لا يعني بذهابه انهُ تخلى عن الرغبة في الحياة وانهُ انما يريد عز وعي او غير وعي، غريزة الحياة مجالاً أوسع فقد نقتنع بأن غريزة الحياة أقوى من غريزة القتال . واذاً فانها لا تقدع الا ريثما تنبعث قوة خالقة مبدعة اي انها لا تدمر . واذن فالحضارة في صميمها — وهي جماع فنون الحياة لا مظاهرها — لا يمكن ان تدمر . اي انهُ اذا دمرت

المباني الضخمة وحرقت الآثار الفاخرة وتأخرت العلوم وانطفأ مصباحها في اماكن كان يتألق فيها . فسيبقى الدجاج يبيض واطباء يصنع المحة المذيبة منهُ . وسيبقى صوف الغنم فتحاك منهُ الملبوسات الصوفية . وستبقى بعض خزائن الكتب فيها آثار المفكرين . وستبقى ولو في زاوية واحدة من زوايا الأرض أقراص الجراموفون وعليها ألحان الموسيقيين . وما زالت الامة لم تحقق عن بكرة أبيها ملاريب في ان الباقين منها سيحسنون في فنون الحياة واستطلاع المجهول ولو تعطلت بعض نواحيها وشلت . ولا بد للحياة بعد الخراب كالأرض بعد الأعصار من ان تنقاد للقوى المبدعة المستقرة في تكوينها فتبني ما هدم وتبعث ما باد . وهذا يعني ان السلف لا يفيد احداً شيئاً . فالمفكر مهما تبلغ آثاره المدمرة لن يقضي على أسلوب البحث العلمي في أوربا ولا على حكمة كنفوشيوس في الصين . تنا لا تخسر الا المظاهر اذا عنى بالخسر الانسان نفسه او نفس الانسان . ويقول الفيلسوف الصيني لن يوتانغ — وعليه اعتمدت في بعض هذه التوجيهات — ان الصين بنيت في عهد من عهودها بمحاكم طاغية وهو باني سور الصين الكبير ، فأحرق من كتب كنفوشيوس ما شاء له بغيهُ واضطهد من اتباعه ما صوره له طغيانه . ولكن حكمة كنفوشيوس والثقافة القائمة عليها لا تزال حية في نفوس الصينيين ترشدهم وتوجه حياتهم . وقال ايليا أبو ماضي في الشعراء بعد ما وصف كيف قتل الطاغية شاعراً لانهُ لم يمتدح له

والشاعر المسكين باقيـــة اقواله فكأنها الأبد
الشيخ يلمس في جوانبهـا صور الهوى والحكمة الولد

وهذا يفضي بنا الى ناحية خفية غير مادية من غريزة الحياة ومصير الحضارة . هو ان الحضارة الحديثة لا تدمر ولا تنهار إلاَّ اذا دمرت أصولها وفي لبابها . وما هو هذا اللباب ؟ حرية العقيدة وحريات الفرد التي تقيم أود الكرامة الانسانية . ثم الديمقراطية من حيث هي وجهة نظر في الحياة ومثل أعلى يتطلع اليهِ الانسان لا من حيث هي نظم تتحكم فقط قد يدخلها الفساد فتفسد . وقد اطلعت وانا اكتب هذه الكلمات في الصباح على ملخص خطبة لترتيس وزوفلت أوضح فيها الحريات الاساسية الخمس التي لا بدَّ منها في رأيه للسلام والحضارة وهي الحرية من الخوف وحرية المعرفة . وحرية العقيدة . وحرية الرأي وحرية الكفاية او التحرر من ضغط الحاجة وبؤس الفاقة . وليس ثمة ريب ان الحكومات القائمة على الاستبداد تدمر هذه الاصول وتفني هذا اللباب ولو لم تخض حرباً قط كما وتنزع هذه النعم إذ تقيم الناس حتى دوي المدفع جواسيس بعضهم على بعض وتكم أفواههم وتقدع عقولهم وتقيدها

منذ سنوات عني أحد المؤلفين الكبار بجمع فصول من كبار المفكرين في نواح مختلفة من الدكتاتورية فكتب فيها المستر تشرتشل مقدمته والمؤرخ فيرورو عن الدكتاتورية في روما القديمة وآندريه موروى عن الدكتاتورية ومشكلة الرجل العظيم ونحو عشرين آخرين من شتى الامم في

شتى نواحي الدكتاتورية . والفصول متفاوتة طولاً من خمس صفحات الى عشرين أو ثلاثين. وطلب مصنف الكتاب الى العالم السلامة أن يكتب كتابة فصل في « الدكتاتورية والعلم » فكان فصله عبارة واحدة فقال: — « ان الدكتاتورية تعني التكميم من كل ناحية وهذا يعني منع النمو . اما العلم فلا يزدهر إلا في جو من حرية البحث والرأي » . وإذن فالدكتاتوريات تستطيع ان تدمر أصول الحضارة ولو لم تخض حرباً. أما الأمم التي لا تخضع نفوسها وتأبى ان تضرع عقولها في هذا القالب الضيق كأقدام الصينيات فحضارتها لا يمكن ان تدمر ولو دمرت الحرب مغانيها. فالخطر الذي تتعرض له الحضارة هو خطر النزول عن هذه المبادىء ومنحها السلطان المطلق للدولة فيغدو الفرد المتقيد به شيئاً في عجلة في آلة ضخمة . وفي غير ناحية واحدة من نواحي الحياة الحديثة بعدنا البعد كله عن معنى الحضارة الأصيل. قيل للانسان يجب أن تعمل فعمل ثم قيل له يجب ان تحارب لتصون حقك في العمل . ثم جاء من يقول له ان المدافع يجب أن تقدم على الزبدة . وان الموت وأنت لابس حذاءك العسكري أنبل وأشرف من الموت في سريرك وقد نزع حذاؤك العسكري. فنحن نعود الى الضيعة الأولى غير ان تكون لنا حريتها الأولى فنخسر من الناحيتين

ان ما تحدثه الحرب من التدمير يبعث على اقطار قلوب من تتبعوا سير الانسان على هذه الأرض وما بذل من عقله وعرقه وكيف اضطهد وعذب لينشىء ما أنشأ. ولكن هذا التدمير وحده لا يهدد صميم الحضارة بقدر ما تهددها النظرة المتغيرة في القيم الاخلاقية والنظم السياسية الأساسية . ان هذه النظم تنطوي على حريات الانسان وامتيازاته الطبيعية فتخضعها لغريزة القتل القوي . ومنزلة غريزة القتل تعدت متنوقة على منزلة غريزة الحياة في نظر طائفة من الدول

وليس ثمة ريب في أنهُ إذا سلمنا بأن هدف الدولة هو التنظيم لأجل الحرب والفتح فالدولة المستبدة أتم وأكفأ . ولكن اذا سلمنا بأن هدف الفرد وجمعهُ ينعم الحضارة هو هدف الدولة ، فليس في كفة الدولة المستبدة ثقل واحد يرجحها في ميزان السرور ويخطىء من يظن ان الآلة والحرب يدمران الحضارة الحديثة بقدر ما يدمرها الميل الى التخلي عن حقوق الافراد الاصلية

في وسع الحضارة ان تزهر بعض الازهار وأن تثمر بعض الاثمار في أحضان الفاقة والخطر والخراب اذا كانت عقول الناس حرة ونفوسهم غير مكبلة بالأصفاد . ولكنها تذوي وتموت ولو كانت راتعة في بحبوحة من العيش والرخاء اذا كان العقل مكبوتاً والروح مقيدة . ان غريزة الحياة أساس حيوية الحضارة وستبقى أبداً مولدة سائرة الى الأمام ولا بد لها في حينها الموقوت من ان تستأنف السير في طريق العلم والفن والأدب نحو آفاق جديدة . ولكن هذه العدة الكامنة فيها تأتي عن كل إنسان حر مهمة عظيمة وهي مهمة تبخس الخطر الذي يهدد غريزة الحياة سواء أكنا في غمار حرب أم لا سمح الله وبدل كل نفيس لدفعه